

الفصل الثالث الديمومة الخلاقة

الوثبة الحيوية

١

ان الفكر يثبت ذاته كدينامية خلاقة حرة. ان من ميزات التجربة الداخلية ان تقنعنا بذلك . ولكن ، هل نحن وحدنا في هذا العالم ، خزنة هذه الحرية ، التي كشفت لنا على هذا النحو ؟ أليس وجودها فينا دليلاً على وجود تيار من الحياة ، ينعش جميع الكائنات ؟

الكائن الحي : يقول « برغسون » :

اذا أخذنا الحياة مأخذ الاعتبار ، حين دخولها الى العالم ، فاننا نراها حملت معها شيئاً قد انفصل عن المادة الجامدة . ان العالم ، في الحالة التي يترك فيها لذاته ، يخضع الى قوانين جبرية. ففي ظروف محددة تسلك المادة سلوكاً محدداً ، فما من شيء مما تفعله لا يمكن التنبؤ به ، فلو كان علمنا كاملاً ، ومقدرتنا على

الحساب لا نهائية، لكننا نعرف سلفاً ، كل ما سيحدث في العالم المادي غير المعضون ، في كتلته وفي عناصره ، كما تنبأ بانكساف الشمس ، او بانخساف القمر . وبالاختصار ، ان المادة عطالة ، وهندسة ، وضرورة . بيد انه بظهور الحياة ، انما تظهر الحركة التي لا يمكن التنبؤ بها ، والتي هي حركة حرة . ان الكائن الحي يختار او ينزع الى الاختيار . ان وظيفته هي الخلق . ففي عالم كل شيء محدد فيه ، «تحيط بالكائن الحي منطقة من عدم التحديد» ... وهذا معناه ان الحياة هي الحرية ، على وجه دقيق ، حرية تندمج في الضرورة ، وتحولها لمنفعتها . (الطاقة الروحية ، ص : ١٢ - ١٤) .

كيف تنهج الحياة لتدخل في نسيج الظواهر المحكم مقداراً معيناً من عدم التحديد ؟ يقول « برغسون » :

اذا بحثنا عن الكيفية التي ينهجها جسم حي ، ليعقق بعض الحركات ، فاننا نلاحظ ان منهجه هو اياه ، بصورة دائمة . ان هذا المنهج قائم على استخدام بعض المواد ، التي بإمكاننا ان ندعوها انفجارية ، والتي لكونها شبيهة ببارود البندقية ، لا تنتظر الا شرارة واحدة لتنفجر . اني اريد ان اتكلم عن مواد غذائية ، وبصفة اخص ، عن مواد ثلاثية العناصر ، مثل ماءات الفحم والدهون . ان فيها كمية كبيرة من الطاقة الكامنة متجمعة ومتهيئة للتحويل الى حركة . ان هذه الطاقة قد استمدت من الشمس ببطء وبالتدريج ، من قبل النباتات ؛

والحيوان الذي تغذى من النبات ، او من حيوان كان قد تغذى من النبات ، الخ ... لا يفعل شيئاً ، الا ان يُمرّ في جسده مادة متفجرة انتجتها الحياة ، بتخزينها للطاقة الشمسية . وهو حينما يقوم بحركة من الحركات ، انما يطلق الطاقة المخزونة على هذا النحو ، وما له لتنفيذ ذلك ، الا ان يلمس مقبضاً من المقابض ، او ان يمس زناد مسدس مسأ رقيقاً ، ليستدعي الشرارة ؛ ان المادة تنفجر ، وتتحقق الحركة في الاتجاه المختار ... ان الامر هو امر الحصول على مادة ، تختزن بلجوها الى عملية بطيئة وصعبة ، طاقة كامنة ، تصبح طاقة حركية على حين غرة . (الطاقة الروحية ، ص : ١٤ ، ١٥) .

انه لتجميع بطيء ، وانفجار مفاجيء ، فكيف لا يصد منا هذا الشبه بالديمومة الداخلية ، التي هي الصفة المميزة للشعور ؟ وعندئذ ، الا تكون الحياة والشعور حقيقة واحدة وحيدة ، ما دامت الديمومة الخلاقة تتجمع على ذاتها ، لتنفجر في افعال حرة ؟ وفي الواقع ، ان الكائن الحي جزيرة من عدم التحديد ، قائمة في وسط عالم ميت^(١) ، فهو لانه مزود بالحركة التلقائية ،

(١) ان الدماغ ، لدى الكائنات الحية العليا ، هو عضو الاختيار ، وعضو عدم التحديد المميز لأرجاع الحياة . وها هي ذي كيفية ذلك :

يحتوي النخاع على عدد من الاجهزة العصبية ، مركبة بصورة من الصور ، تقوم معها ، لدى وجود احساس خارجي ، برد فعل مباشر . وذاك هو المنعكس . يقول « برغسون » :

ينفصل عن عطالة الاشياء المادية؛ ولكن، من يقول حركة يقول تعدداً في الاتجاهات الممكنة ، واذن ، ضرورة في الاختيار ، وحرية في الاختيار ترفع عدم التحديد. غير ان الاختيار والحرية يفترضان شعوراً بوضع الاختيار ، ويوجه التكيف . وعلى هذا النحو ، ان الشعور «مشارك للحياة في الامتداد» . يقول «برغسون» :

يمكن الحياة ان تتجه في اتجاه الحركة والعمل ، - حركة ناجعة باستمرار ، وعمل حر اكثر فأكثر ؛ ان في هذا خطراً ومغامرة ، ولكن فيه الشعور ايضاً ، بدرجاته النامية في عمقها وشذتها . ومن جهة اخرى ، يمكن للحياة ان تتخلى عن ملكة العمل والاختيار ، التي تحمل تخطيطها في ذاتها ، وان تنظم

بيد ان هناك حالات ، يصعد فيها التنبيه الى الدماغ قبل كل شيء ، ثم يهبط ، ولا يؤثر في جهاز النخاع ، الا بعد ان يكون قد اتخذ من الدماغ وسيطاً ، بدلا من ان يحظى ، بصورة مباشرة ، برجع من ارجاع الجسد ، معقد في كثير او قليل ، حينما يتوجه الى النخاع . فلماذا هذه المواربة ؟ ماذا يفيد تدخل الدماغ؟ اتنا نستطيع ان نحمن ذلك ، بدون اي جهد ، اذا ما اخذنا البنية العامة للجملة العصبية مأخذ الاعتبار . ان الدماغ ذو علاقة بأجهزة النخاع بصفة عامة وليس ذا علاقة فقط بهذا او ذاك من تلك الاجهزة ؛ انه يتلقى على هذا النحو تنبيهات من كل نوع ولا يتلقى فقط هذا النوع او ذاك من التنبيهات . انه اذن ، يلتقي الطرق ، حيث يستطيع التنبيه القادم من اي مسلك من المسالك الحسية ، انه يتجه في اي مسلك من المسالك الحركية . انه يحول يسبح بقذف التيارات المتلقى من نقطة من نقاط الجسد ، في اتجاه جهاز من اجهزة الحركة ، معين بالارادة . ومنذ ذلك الحين ، ان ما يطلبه التنبيه من الدماغ ، عند قيامه بجولته ، هو ولا شك ، ان يحرك جهازاً محركاً اختاره ، ولم يخضع له قط ... ان الدماغ عضو انتخاب . (الطاقة الروحية ، ص : ٨ - ٩) .

ذاتها ، في سبيل ان تحظى بكل ما تحتاج اليه ، دون القيام بأية حركة ، بدلاً من ان تذهب في البحث عنه ، وعندئذ ، سيكون هذا وجوداً مضموناً ، هادئاً ، ناعماً ، ولكنه سيكون ايضاً ، خدراً هو النتيجة الاولى من نتائج السكون ، وسرعان ما يتحول الى نوم نهائي والى لاشعور . ذانك هما السيلان اللذان يفتحان امام تطور الحياة . ان المادة الحية قد قامت بأحد قسميها على احد السيلين ، وبقسمها الآخر على السيل الآخر . ان السيل الاول يدل بمجمله على اتجاه العالم الحيواني ... والسيل الثاني يدل بمجمله على اتجاه العالم النباتي . (الطاقة الروحية ، ص : ١٢)

الوثبة الحيوية : يقول « برغسون » :

ان الامور تحدث ، كما لو ان تياراً عظيماً من الشعور قد اجتاز المادة ... بيد ان الشعور كاد يقع في الشراك التي نصبت له . ان المادة تلتف حوله ، وتطويه في آلياتها الخاصة ، ولا تلبث ان تنيمه في لاشعورها الخاص . ان الآلية والاشعور هما القاعدة ، في بعض خطوط التطور ، ولا سيما ذلك الخط المتصل بالعالم النباتي ، ان الحرية المحايثة للقوة التطورية لا تزال تظهر ، حقيقة ، عن طريق خلق أشكال لا تتوقع ، أشكال هي آثار فنية حقيقية ، غير ان هذه الاشكال التي لا يمكن توقعها ، لا تلبث وقد خلقت ، ان تتكرر ، بصورة آلية ، فالفرد لا يختار . اما الشعور ، فلا يلبث في خطوط اخرى ، ان يتحرر

تحرراً كافياً ، في سبيل ان يجد الفرد بعض العاطفة وبعض الحرية تبعاً لذلك ، بيد ان ضرورات الوجود قائمة هنا ، تجعل من القدرة على الاختيار ملحقاً بسيطاً للحاجة الى الحياة . وعلى هذا النحو ، ان الحرية مرتبطة اشد ارتباط ، من اسفل السلم الى اعلاه ، بسلسلة تنجح في اطالتها الى ابعد الحدود . ولكن هناك قفزة فجائية تحدث مع الانسان وحده فتقطع السلسلة .
(الطاقة الروحية ، ص : ٢٠ - ٢١) .

ماذا ترانا نقول ، الا ان الحياة والمادة مثالان حركتين متضادتين ؟ ان صورة من الصور تقدر ان تمد لنا يد المعونة ، لتحديد هذه الفكرة ، وهذه الصورة هي صورة دفعة من البخار . يقول « برغسون » :

ان البخار المقدوف في الهواء ، لا يلبث ان يتكثف بأجمعه تقريباً ، في قطرات تتساقط ، وهذا التكثف وذاك السقوط ، انما يمثلان ، بصورة بسيطة ، فقدان شيء من الاشياء ، وانقطاعاً ، ونقصاً . بيد ان قسماً يسيراً من دفعة البخار يلتقي ، غير مكثف ، اثناء بعض اللحظات ؛ ان هذا القسم يجهد لكي يرفع القطرات التي تسقط ، فتتوصل في أقصى الحدود الى ابطاء سقوطها . وعلى هذا النحو ، لا بد ان تنقذف بدون انقطاع ، قطرات من خزان الحياة العظيم ، تصبح كل منها عالماً حين سقوطها . ان تطور الانواع الحية في داخل هذا العالم ، يمثل ما يتبقى من الاتجاه البدائي ، من الدفعة الاصلية ، ومن

الاندفاع الذي يختلط بالمادية في اتجاه معاكس ... لنفكر
بحركة مثل حركة رفع الذراع ، ثم لنفترض ان الذراع سقطت
حينما تركت لذاتها ، ومع ذلك يبقى شيء من الارادة التي كانت
تنهشها ، فبهذه الصورة عن « حركة خلاقة تنهار » ، نكون
قد حصلنا على تصور أصح للمادة . واننا سنرى حينئذ ، في
الفعالية الحية ، « حقيقة تبتدع ذاتها من خلال تلك التي تنهاره ...
وهي شبيهة ببعض الشبه بالطريق الذي يفتحه السهم الناري
الآخر ، بين البقايا الهابطة من الاسهم النارية المنطفئة . (التطور
الحلاق ، ص : ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٢) (١) .

(١) تعلمنا الفيزياء ان شيئاً مادياً ، في حالة تركه لذاته ، تتناقص طاقته ،
وهذا يعني ان كمية « الطاقة المخزونة » تتناقص فيه كلها انتقل من تحول الى
تحول ، ولكن كيف يسلك الكائن الحي ؟ انه يجمع ، كما نرى ، مواد
« انفجارية » . يقول « برغسون » :

ماذا تمثل هذه المتفجرات ، غير مخزون من الطاقة الشمسية ، التي يبقى
تناقصها ، بصورة مؤقتة ، معلقاً على هذا النحو ، في بعض من نقاطها ، التي كانت
تندفق منها . ان الطاقة الصالحة للاستعمال التي تحفظها المادة المتفجرة فيها ، تنفق
ولا شك ، في لحظة حدوث الانفجار ، بيد انه كان بالامكان ان تنفق من قبل ،
لو لم يوجد هناك جسم عضوي ، يحول دون تشتتها في سبيل حفظها و اضافتها الى
ذاته ... ان الحياة تجمع في خزائنها بعضاً من شيء ، كان بالامكان ان يتبدد
لولاها . انها اشبه ما تكون بمجهود يحاول ان يرفع الاثقال التي تقع ...

ان جميع التحليلات التي قمنا بها ، ترينا في الحياة جهداً يحاول ان يصعد
ذاك المنحنى الذي تهبطه المادة ... صحيح ، ان الحياة التي تتطور ، على سطح
كوكبنا ، متصلة بشيء من المادة . فلو انها كانت شعوراً خالصاً ، لكانت فعالية
خلاقة خالصة . انها في الواقع ، مرتبطة اوئق ارتباطاً بجسم عضوي يخضعها

ان كل نوع من الانواع الحية ، وكل جسم عضوي من الاجسام ، يمثل حالة من حالات التوازن ، هي حالة التوفيق بين دفعة الحياة وتهالك المادة . ان هذا انتصار الوثبة على العطالة ؛ ان الجسم الحي مقاومة مغلوطة على أمرها . بيد ان كل خلق للحياة لا بد له من ان يتخلى عن ادعاءاته في الحرية المطلقة ، وفي الحفة المطلقة . انه يمر عن انسحاق الحياة ، بقدر ما يمر عن تحريرها . ان الكائن الحي حياة ناقصة ^(١) .

اننا سنقول ما يعادل ذلك ، عن الانواع الحية ، فكل نوع

للقوانين العامة للمادة الجامدة . غير ان جميع الامور تجري كما لو كانت تبذل جهدها لكي تتحرر من هذه القوانين ... وهي ، لانها عاجزة عن ايقاف سير التغيرات المادية ، انما تنجح في اعاقه مجراها ، مع ذلك . (التطور الخلاق ، ص : ٢٦٧ - ٢٦٨) .

(١) يقول « برغسون » :

انه اشبه ما يكون بالحقيقة ، ان تكون الحياة تنمش جميع الكواكب المعاقة بجميع النجوم . انها تتخذ لديها ولا شك ، بنسبة تنوع الظروف التي احاطت بها ، اشكالا هي اكثر الاشكال تنوعاً وابعدها عن كل ما نتصور ، غير ان لها في كل مكان نفس الجوهر ، وهو ان تجمع الطاقة الكامنة ، بصورة تدريجية ، لكي تنفقها في العمل الحر ، بصورة فجائية ... (اما على سطح كوكبنا) ، فقد كان يمكن المجموع ان يكون اعلى بكثير مما هو كائن ، وهذا على وجه الاحتمال ، هو ما يحدث في عوالم يكون التيار فيها مقذوفاً خلال مادة اقل ابقاء . كما انه يمكن للتيار ايضاً ، الا يجده منطلقاً حرراً ، حتى ولا ضمن هذا الحد الناقص ؛ وفي هذه الحال ، لا يمكن للكيفية ولا للكمية في الطاقة الخلاقة التي تمثل الصورة الانسانية ، ان تتحررا على كوكبنا . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٧٣ ، ٢٢٥) .

يكشف عن توقف للوثبة الحية ، وانها لها ، تلك الوثبة التي
تكرر عن طريق توليد الشبيه ابتداء من الشبيه ، وتدور في
دائرة ، بدلاً من ان تتابع جهدها الخلاق .

ان كل جسم عضوي فردي يخضع ، حينها يخيم عليه الموت ،
الى تهالك المادة ، ذلك التهالك المنتصر على وثبة استنفدت
قواها (١) .

بيد ان الحياة حاولت ان تجري ، في شقوق المادة ، او في
نقاطها الاقل مقاومة ، شيئاً من حركتها ، حيثما وجدت فيها
تلك الشقوق وهذه النقاط . لقد اتخذت ، صدقة ، عدداً كبيراً
من الاتجاهات ، تبين لها فيما بعد ، ان الكثير منها طرق
مسدودة المنافذ . ذاك هو الاتجاه الذي قادها الى سكوت النبات ،
او الاتجاه الذي قادها الى المجتمعات الراكدة للحشرات . أما
السبيل الذي كان ينبغي له ان يؤدي الى الثدييات والى الانسان ،
فقد لاح وحده امامها « مفتوحاً » . يقول « برغسون » (٢) .

(١) اذا كانت المادة طباق Antithèse الحياة ، فيجب علينا ان نقول
ايضاً ، ان الحياة كانت مستحيلة لولا المادة . ان المادة عائق ووسيلة في وقت
واحد . أضف الى ذلك ان الحياة لولا هذا العائق الذي صادفته في طريقها ،
لا استطاعت ان تبلغ ابدأ هذه الدرجة من التوتر الذي قادها الى تحقيق ما
لا يمكن تحقيقه ، لانه ضروري لتغلب الحياة على جميع المقاومات . ان الحياة
والمادة متتامتان اذن .

(٢) ان نظرية « برغسون » عن الحياة تستدعي بعض الملاحظات :
اولاً - انها فلسفة محاربة للهادية ، بصورة جذرية ، وفي الحين الذي يرى
فيه كثير من علماء البيولوجيا ان الحياة ليست سوى خاصية من خواص المادة ،

ان قوة تعمل امامنا ، بصورة مرئية ، وهي تحاول ان تتحرر من عوائقها ، وان تتجاوز ذاتها ايضاً . غير انه لا بد لنا من ان ندخل في حسابنا ، عوائق من كل نوع ، تلاقيها هذه القوة على طريقها . ان تطور الحياة ، منذ اصولها حتى الانسان ، يستدعي في نظرنا ، صورة تيار من الشعور ، يندمج في المادة ، وكأنه يريد ان يفتح طريقاً تحت التراب ، ويقوم

وان الحلية الحية ليست سوى مركب كيميائي بسيط ، لا يتقبل « برغسون » هذا التفسير ، الذي يفترض ان الصدفة وحدها ، فاعلة في اصل الحياة ، وانها هي وحدها ايضاً ، التي اثرت في تطورها . ولكن الصدفة لا يمكن ان تكون تفسيراً ، حيث يتطلب الاتجاه الثابت معجزة مجددة .

اضف الى ذلك ، ان ما هو مادي في جسم عضوي ، ليس بالحياة ذاتها ، بل انه بالاحرى الوجه السالب لها ، وهذا يفسر لنا ان الحياة كان لا بد لها من ان تتقبل التوفيق بينها وبين المادة ، الذي كانت المادة قد فرضته عليها ، في سبيل تحقيقها . ان تفسير الحياة بالمادة العضوية ، امثله ما يكون بتفسير النفق بالجل ، والمرور بالعائق المتقلب عليه .

ثانياً — كيف يجب علينا ان نفهم الوثبة الحية ؟ — الحق يقال : ان « برغسون » ذاته يعترف ان هذه النظرية ليست الا صيغة ميسرة لتفسير هذه الحقيقة السالبة الحالصة ، قبل كل شيء ، وهي ان الظواهر البيولوجية « لا يمكن » ان تفسر بقوانين المادة ؛ ومن ثمت فهي صيغة ميسرة ايضاً ، لتفسير هذه الحقيقة الموجبة ، وهي ان التعدد اللانهائي للكائنات الحية يتجه بالجملة نحو اشكال من الحياة ، متحررة من العبوديات المادية ومن المعطالة المادية ، نحرراً متزايداً .

وفي الواقع ، انه من الممكن ان تظل هذه النظرية غامضة بعد في نظر الذكاء ، ولكنها ليست كذلك في نظر الحدس ، الذي يدرك من الداخل ، ما هي وثبة الحياة في كل منا .

بمحاولات ذات اليمين وذات الشمال ، ويندفع الى الامام في كثير او قليل ، ويصطدم في اكثر الاحيان ، بصخر من الصخور ، فيتكسر عليه ، ثم يعود فيظهر الى النور . ان هذا الاتجاه هو خط التطور الذي يؤدي الى الانسان . (الطاقة الروحية ، ص : ٢٢) .

ومن جهة اخرى ، هل تستمد قيمة فكرة من الفكر من وضوحها (حتى ولو كان هذا الوضوح يسيء في ادخال الوقائع في حسابه) ، ام من قدرتها على تلبس الوقائع بالملاحظة ، من قرب ؟ (انظر كتاب : منبع الاخلاق والدين ، ص : ١١٦ وما يليها ، بصدد المضمون « الايجابي » لمعنى الوثبة الحية .)
ثالثاً - « ان التطور خلاق » . ان الاشكال التي تخلقها الحياة في كل جزء من اجزائها بقفزاتها المنفصلة ، على مدى تطورها ، انما هي الوان صحيحة من الخلق ، وهي بما هي كذلك ، الوان من الخلق لا يمكن التنبؤ بها . ان هذا هو ما لا تعترف به الميكانيكية الخالصة ، التي تذهب الى ان الاشكال الحية انما تفسر بجمعية الاسباب المتعددة التي تفعل فيها ، ولا المذهب الغائي الذي يرى ان هذه الاشكال ذاتها محددة بفكره الهدف الدقيق ، الذي ينبغي لها ان تبلغ اليه (ولكن منذ الذي يفكر بهذه الفكرة ؟) يقول « برغسون » :

ان الوان خلق الحياة محددة في كتا الحالتين ، والمستقبل يمكن استنتاجه من الحاضر عن طريق الحساب ، او يرتسم فيه على شكل فكرة من الفكر ، فيصبح الزمان من جراء ذلك عديم النجوع . (منبع الاخلاق والدين ، ص : ١١٩) .

ان في هذا جهلاً بطابع الديمومة الخلاق ، فكل نوع من الانواع الحية هو ابداع للحياة . وهذا حل اصيل لمسألة من المسائل كانت المادة قد طرحتها على الحياة حينها عارضتها .

وانه ليستحيل علينا ان نعاود في بعض السطور ، المناقشات والتبريرات المحكمة التي اوردها «التطور الخلاق» . ان القارئ الحريص على هذه المسائل يحسن صنعاً برجوعه اليها في هذا الكتاب .

سيادة الانسان

٢

الانسان والحيوان : يقول « برغسون » :

لقد كان بإمكان البعض ان يعتقدوا ان الطاقة الحية ، في احد خطوط تطورها ، التي نجحت فيها بالذهاب الى ابعد مما ذهبت اليه ، حتى وصلت الى مجتمعات الحشرات ، انما كانت يمكن لها فيه ان تجر أحسن شيء لديها ، وان تستمر مستقيمة في سيرها قدماً . ولكنها انخرفت ، فانحرف بانحرافها كل شيء ، وظهرت كائنات كانت فعاليتها تدور في الدائرة ذاتها ، بصورة غير محددة ، وكانت اعضاؤها ادوات تامة الانجاز ، بدلاً من ان تترك الباب مفتوحاً ، امام ابداع لا يني يحدد هذه الادوات ، وكان شعورها ينزلق مع نومّان الغريزة somnambulisme de l'instinct ، بدلاً من ان ينهض ويشد في التفكير التأملي .

تلك هي حال الفرد في مجتمع الحشرات ، ذلك الفرد الذي يدل تركيبه على علم ، ولكن الآلية كاملة لديه . ان الجهد الخلاق لم يمر بنجاح ، الا على خط التطور المؤدي الى الانسان . ان الشعور حينما اجتاز المادة ، اتخذ في هذه المرة ، وكأنه صب في قالب من القوالب ، شكل الذكاء الصانع . اما الابداع الذي يحمل التأمل في ذاته ، فأخذ يتفتح على شكل الحرية . (منها الاخلاق والدين ، ص : ٢٢٣)

ويقول في مكان آخر :

ان الابداع لدى الحيوان ، ليس قط الا تغييراً في عياده routine . ان الحيوان ، وهو سجين عادات نوعه ، لا يلبث ان يتوصل ، دون شك ، الى توسيعها بزيادة initiative الفردي . بيد انه لا يفلت من الآلية الا مدة لحظة من اللحظات ، وذلك هو الوقت اللازم لخلق آلية جديدة ، وسرعان ما تغلق ابواب سجنه حال انفتاحها ، وهو حينما يشد سلسلته المعلق بها ، لا ينجح الا في اطالتها . اما لدى الانسان ، فالشعور يحطم السلسلة . انه لدى الانسان ، ولدى الانسان وحده ، يتحرر من ربقته . ان جميع تاريخ الحياة ، حتى هذا الحد ، كان تاريخ الجهد الذي بذله الشعور ليرفع المائدة عنه ، وتاريخ الانسحاق الكامل في كثير او قليل ، الذي عاناه الشعور ، من جراء المادة التي تمالكته عليه . (التطور الخلاق ، ص : ٢٨٦) .

ويقول في مكان آخر :

ان الحياة تبدو ، بصورة اجمالية ، وكأنها موجة كبيرة
تنتشر ابتداء من مركز من المراكز ، وتتوقف عند محيط
الدائرة بأكمله تقريباً ، وتتحول الى ذبذبات في المكان ، ومن
نقطة واحدة من نقاط هذه الدائرة ، يُغتصب العائق عنوة ،
وينطلق الاندفاع حراً . ان هذه الحرية هي ما سجلته الصورة
الانسانية . ومن كل ناحية ، ما عدا الانسان ، فقد انحصر
الشعور في طريق مسدودة المنافذ ، وقد تابع طريقه ، مع
الانسان وحده ، واذن ، فالانسان يتابع الحركة الحية ،
بصورة لا تحديد فيها . . . ان كل شيء كان يجري حسب ما
يرام . ان الانسان ، او الانسان الاعلى ، حاول ان يحقق ذاته ،
ولم ينجح في ذلك ، الا حينما ترك على جانبي الطريق ، جزءاً من
ذاته . ان هذه البقايا تتمثلها البقية الباقية من الحيوانية ، ويتمثلها
حتى العالم النباتي . (التطور الخلاق ، ص : ٢٨٨ - ٢٨٩) .

انها لنظرة رائدة ، فالحيوانية تتمثل البقايا المتتالية ، التي
خلقتها الحياة عن نفسها ، في سبيل ان تصبح قادرة ، وهي اكثر
خفة ، واكثر صفاء ، على ان تتجاوز ذاتها ، وتلبس الصورة
الانسانية ، التي قد تتجاوزها بدورها .

الذكاء والاداة : ان الذكاء هو الذي يضمن للانسان تفوقه .
ان الحيوان يتصرف بالغريزة ، وهذا يعني انه يندفع بالقوى
اللاشعورية التي نقلها اليه النوع ، والتي فرضتها عليه الحياة .
فلا امكانية لديه لتنويع تكيفه مع وسطه ، ولتحرير ذاته بتدخله .

ومن أجل ذلك ، فقد انصرف الى العياد والتكرار .

ولكن ، ما السمة التي يمكن ان نخدمنا في التمييز بين الذكاء والفريزة ؟ يقول « برغسون » :

اذا استطعنا ان نتجرد من كل كبرياء ، واذا اخذنا ما يصوره لنا التاريخ وما قبل التاريخ ، بصورة دقيقة ، على انه الميزة الثابتة للانسان والذكاء ، في سبيل تحديد النوع الذي نتحدث منه ، فربما لم نعد نقول « انسان عارف » ، وانما سنقول « انسان صانع » . وبصورة نهائية ، ان الذكاء اذا نظرنا اليه من وجهة ما يبدو انه سيره البديء ، انما هو ملكة انتاج الاشياء الاصطناعية ، وبصفة خاصة ، انه ادوات تصنع ادوات ، وتغير من كيفية صنعها بصورة لا تحديد فيها .

والآن ، هل يمتلك حيوان لا ذكاء ، لديه ، ادوات وآلات ايضاً ؟ أجل ولا شك ، غير ان الاداة هنا تؤلف قسماً من الجسد الذي يستخدمها . وازاء هذه الاداة نجد « فريزة » تعرف كيف تستخدمها . وعلى هذا النحو ، اذا لم نأخذ مأخذ الاعتبار الا الحالات الحدية ، حيث نشاهد الانتصار الكامل الذي يحرزه كل من الذكاء والفريزة ، فاننا لا نلبث ان نجد بينهما اختلافاً جوهرياً ، فالفريزة الكاملة هي ملكة استعمال ، بل انشاء ادوات عضوية ؛ في حين ان الذكاء الكامل هو ملكة صنع الادوات غير العضوية واستعمالها .

ان حسنات هذين العالمين من الفعالية ، وسميئتهما ، تقفز الى

العيون . ان الفريزة تجد في متناولها الاداة المخصصة ، وهذه الاداة التي تصنع ذاتها ، وتصلح ذاتها ، تصنع كل ما تدعى الى صنعه حالاً ، وفي اللحظة المرادة ، وبدون صعوبة ، وبكمال يشير الدهشة ، في غالب الاحيان . وفي المقابل ، فانها تحافظ على بنية لا تتغير تقريباً . اذن ، فالفريزة متخصصة بالضرورة . وخلافاً لهذا ، ان الاداة المصنوعة بذكاء ، اداة ناقصة ، ولا يحظى بها الا بجهد جهيد ، بل ان استعمالها شاق تقريباً ، بصورة دائمة . ولكن ، ما دامت مصنوعة من مادة غير عضوية ، فقد كان بالامكان لها ان تتخذ اي شكل من الاشكال ، وان تنفع في اي اداء كانت ، وان تنشئ الكائن الحي من كل صعوبة جديدة تظهر ، وان تضع في متناول يده عدداً لا يحصى من القدرات . ان هذه الاداة ، لكونها احط من الاداة الطبيعية في ارضاء الحاجات المباشرة ، قد كان لها من الحسنات اكثر مما لها بكثير ، كلما كانت الحاجة اقل الحاجاً ... وهي ، بدلاً من ان تغلق دائرة العمل التي يتحرك الحيوان فيها بصورة آلية ، كما تفعل الفريزة ، انما تفتح امام هذه الفعالية مجالاً غير محدد ، تدفعها فيه أبعد فأبعد ، وتحررها اكثر فأكثر . (التطور الخلاق ، المقدمة وص : ١٥٠ - ١٥٣)

ان وثبة الحياة الخلاقة ، حيثما تكون مضغوطة بثقل المادة ، انما تحقق بالانسان اعلى مراحل نجاحها ، فتخلق كائناً خلاقاً ، يصنع ادوات وآلات ، فتصبح عدوته المادة بفضل هذه الآلات

وتلك الادوات ، مسترقة ومقسورة على ان تقوم بتحرير الحياة ذاتها . وخلافاً للحيوان ، المنتظر منه ان يستخدم الطاقة التي جمعتها الحياة في جوهر كيانه ببطء ، توصل الانسان الى ان يسيّر لصالحه كميات الطاقة المخزونة ، والموجودة في العالم المادي ، وغير المحدودة بصورة عملية . وعلى هذا النحو ، تنتهي المقاومات التي كانت المادة تعارض بها الحياة . فها هو ذا العائق ينقلب ، وها هي ذي المادة ذاتها تخدم مقاصد الحياة . لقد اصبحت الانسانية سيّدة مصيرها ، ومندوبة للقيام بتحرير كانت الحيوانية تتلمحه تلمحاً . ان عهداً جديداً يبتدىء ، فالانسان ليس حيواناً كاملاً فقط ، بل انه الحياة ذاتها ، وقد وعّت ذاتها . فليذكر ذلك ، وليذكر كرامته ، ومصيره الروحي الذي وعد به ، سواء في نوعه ام في فردة . يقول « برغسون » :

لقد زودنا الذكاء بقدرات لا تعد الى جانبها شيئاً قدرة ابداننا ، حينما رفع كيفية صنع أدواته الى درجة من التعقيد والكمال ، لم تتوقعها الطبيعة ذاتها (وهي عاجزة عن الانشاء الميكانيكي) ، وحينما ملأ آلاته باحتياطي من الطاقة ، لم تفكر به الطبيعة (وهي الجاهلة بالاقتصاد) ؛ ان هذه القدرات ستكون غير محدودة ، حينما يعرف العلم كيف يحرق القوة التي تمثلها ، بشكل مكثف ، أقل ذرة من ذرات المادة التي لها وزن . ان العائق المادي قد سقط تقريباً . وغداً سيكون السبيل حراً ، في اتجاه النفخة ذاته ، تلك النفخة التي قادت

الحياة الى النقطة التي كانت ينبغي لها ان تقف لديها . (منبعها
الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٧ - ٣٣٨) .

ويقول في مكان آخر :

هل الذكاء يصنع من اجل الصنع ؟ ... ان الصنع قائم في
صوغ المادة ، وفي تطويرها ، وفي طيها ، وفي احوالها الى اداة ،
لكي يكون الذكاء سيداً عليها . ان هذه « السيادة » هي التي
تفيد الانسانية ، اكثر ايضاً بما تفيدها النتيجة المادية للابداع
ذاته . فاذا حصلنا على نفع مباشر من الشيء المصنوع ... فهو
شيء حقير في مقابل الافكار الجديدة ، والحوافز الجديدة ،
التي يبرزها الابداع من كل جهة ، كما لو كان الابداع له نتيجة
جوهرية ، وهي ان يرفهنا فوق ذواتنا ، ومن جراء ذلك ،
ان يوسع من آفاقنا . (التطور الخلاق ، ص : ١٩٨) (١) .

(١) انظر فيما بعد ، الفصل الخامس ، القسم الثالث : مصير الانسان .

المخلق والفرح

٣

الصيرورة العامة : ان عالم العلم — كما رأينا — عالم حذف منه الزمان . فكل شيء فيه يمكن التنبؤ به ، وهذا يعني ان المستقبل يتحدد فيه ، منذ الآن ، حتى ان ذكاء قوياً الى حد كافٍ في قوته ، يستطيع سلفاً ان يقرأه في الحاضر . ولكن ، لماذا ينبغي لنا ، عندئذ ، ان « ننتظر » حصول الحادثة ؟ ولماذا كان مجرى الامور يجري بهذا البطء ، حتى اننا لا نستطيع الا ان نخضع له ، دون ان نغيّر شيئاً فيه ؟ اننا لا نلبث ان نقسر على الاعتراف بأن الصورة التي يعطينا اياها العلم عن العالم ، هي صورة رمزية خالصة ، تجعل « واقعة من وقائع التجربة » تقلت منا ، فتاريخ العالم ليس معطى لنا دفعة واحدة . يقول « برغسون » :

انكم تحصلون ، في الواقع ، على عالم يمكن حساب حالاته المتلاحقة ، بصورة نظرية ، سلفاً ، مثل الصور المتلاصقة على الشريط السينمائي ، قبل عرضها . بيد انه ماذا يفيدنا العرض حينئذ ؟ ولماذا تنتشر الحقيقة في الزمان ؟ تلك هي النقطة التي انطقت منها ، فيما مضى ، بتفكيري . لقد انقضى ما يقارب خمسين عاماً على تعلقي الشديد بفلسفة « سبنسر » Spencer . وفي يوم غير متوقع من الايام ، رأيت ان الزمان لا يقوم بشيء فيها . ولكن ما لا يقوم بشيء ليس شيئاً . ومع ذلك ، فقد قلت لنفسي : ان الزمان شيء ما ، واذن فهو يعمل . ماذا يستطيع ان يفعل ؟ ان الحس السليم البسيط كان يجيبني : ان الزمان هو ما يمنع ان يحدث كل شيء دفعة واحدة ... الا يبرهن لنا وجود الزمان ، ان هناك عدم تحديد في الاشياء ؟ ألا يكون الزمان هو هذا اللا تحديد ذاته ؟ (الفكر والمتحرك ، ص : ١١٧ - ١١٨) .

ان معنى هذه الحقيقة العميق ، يدل على ان العالم صيرورة . ليست الديمومة حادثة عارضة من الحوادث ، ولا تأخراً بسيطاً محمولاً على ظهور المستقبل ، الذي سيكون ما هو جوهرى فيه ، معطى سلفاً في الحاضر . فاذا كانت الديمومة غير قابلة للانضغاط في الواقع ، فهذا لانها عامل من عوامل الخلق . ان الديمومة سخافة ، وهي تختلط بالانشاء البطيء ، الذي يولد الاشياء والكائنات . وعندئذ ، فالانتظار يتخذ كامل معناه ، فهو ليس

توجيهاً من التوجيهات مفروضاً على مشاعرنا ، على نحو لا يمكن فهمه ؛ ان الانتظار هو ترجمة عمل أصم من اعمال النضج التي مسرحها العالم ، الى ألفاظ الشعور . وهكذا ، ان كل لحظة من لحظات الزمان تحمل معها شيئاً من الاشياء ، جديداً بصورة جذرية ، واذن ، شيئاً لا يمكن التنبؤ به ؛ ان كل لحظة من لحظاته تضيف نفماً جديداً الى سنفونية العالم ، تلك السنفونية التي تبقى غير تامة دائماً ، وتبقى متبعة ابدأ . انها أشبه ما تكون بموجة تتضخم ، ثم لا تلبث ان تنتشر ، راسمة بصورة دائمة ، صورة من الصور الجديدة والاصيلة ، والتي لا يمكن التنبؤ بها ^(١) . هل هذه النظرية عن الاشياء نظرية « مثيرة » ؟

(١) غير ان ذكاءنا قد صيغ على هذا النحو ، حتى ليدو لنا ان كل حادثة ، مهما كانت ، يمكن ان يتنبأ بها ابتداء من سوابقها . فاذا ما تحققت ، فهذا لانها كانت « ممكنة » قبل ان تصبح واقعية ، وذلك لانه كان بالامكان لذكاء نفاذ بصورة كافية ، ومستعمل بصورة كافية ، أن « يرى » الحادثة في سوابقها ، وهذا المعنى الحقيقي لكلمة تنبأ (pré - voir ، رأى من قبل) . ولكن في ذلك شيئاً من السفسطة . يقول « برغسون » :

حينما يؤلف احد الموسيقيين سنفونية من السنفونيات ، فهل كان عمله ممكناً قبل ان يصبح واقعياً ؟ نعم ، على ان نفهم بذلك انه لم يكن هناك من عائق لا يمكن التغلب عليه ، يقوم في وجه تحقيقه . غير اننا ننتقل ، دون ان ننتبه ، من هذا المعنى السلي بكايته لكلمة « ممكن » الى معنى ايجابي ، فنستنتج منه ان كل شيء يحدث ، كان بالامكان ان يري سلفاً من قبل فكر مستعمل الى حد كاف من الاستعلام . وانه على هذا النحو ، كان موجوداً وجوداً سابقاً على تحققه ، بشكل من اشكال الامكان . (الفكر والمتحرك ، ص : ٢٠) .

كذلك :

ان هذا ما يأخذه السيد «بندا» على الفلسفة البرغسونية . بيد ان ما تحويه الفلسفة البرغسونية من المثيرات ، ليس عيباً من العيوب الرومانتية ، التي هي نتيجة من نتائج مزاج صاحبها ، وانما هي ، بصورة مضبوطة الى اقصى حدود الضبط ، نتيجة لما في العالم من مثيرات .

فقد كانت مسرحية « هامليت » ممكنة ، ولا شك ، قبل ان تتحقق ، اذا ما فهمنا انه لم يكن هناك من عائق لا يمكن التغلب عليه ، قائم في وجه تحققها . اننا في هذه الحالة الخاصة ، ندعو ممكناً ما ليس مستحيلاً ، وبديهي ان هذه الـ « لا استحالة » لشيء من الاشياء ، هي شرط من شروط تحققه . بيد ان الممكن مفهوماً على هذا النحو ، ليس مما هو كامن ولا مما يوجد وجوداً سابقاً بصورة مثالية ، في اية درجة من درجاته . اغلقوا الحاجر ، وسترون ان احداً لن يجتاز الطريق ؛ ولا ينتج عن ذلك انكم تستطيعون ان تنبأوا بمن سيجتازها حيناً تفتحونها . انكم تنتقلون خلسة وبصورة لا شعورية ، من المعنى السلي بكايته لكلمة ممكن ، الى معناها الايجابي . كان الامكان يعني ، منذ لحظة ، « غياب المائق » ، وها انتم اولاء تجعلون منه الآن « وجوداً سابقاً على شكل افكار » ، وهذا شيء مخالف تماماً . (الفكر والمتحرك ، ص : ١٢٩ - ١٣٠) .

ان ما يحويه الماضي قبل حدوث الحادثة ليس الحادثة ذاتها في حالة مضمرة ، ولا حتى كل ما ينبغي لها ليمكن التنبؤ بها ، وانما هو فقط ، عدم قيام عائق في وجه هذه الحادثة . وهذا معناه ان الحادثة لا تصبح واقعية الا بفعل من افعال الخلق التي لا يمكن التنبؤ بها على الاطلاق .

وقد سئل « برغسون » في يوم من الايام ، انشاء مقابلة من المقابلات ، عن مستقبل المسرح ، فقال :

- لو انني أعلم ما سيكون عليه الانتاج الدرامي الكبير ، في الغد ، لكنت صنعته . ولكن الانتاج الذي تتكلمون عنه ، ليس بعد ممكناً .

- ومع ذلك ، فيجب بالتأكيد ان يكون ممكناً ، لانه سيتحقق في يوم من

وعلى هذا النحو ، يتجدد غموض الخلق باستمرار . لقد كانت الخطيئة التي وقع فيها الفلاسفة ، هي تصورهم لعملية الخلق ، وكأنها فعل آني حدث في بدء الزمان ، في حين انه جهد مستمر من جهود الابداع يتتابع في أعماق الكائنات .

الايام .

— لا ، انه ليس ممكناً ، وبالإضافة الى ذلك ، فانا اوافق معكم انه سيكون ممكناً .

— ماذا تعني بذلك ؟

— ان هذا بسيط جداً . انني اعني بذلك ان يبرز رجل بارع او عبقرى وان يخلق اثرًا من الآثار ، فما هو ذا قد نحقق ، واصبح من جراء ذلك بالذات ممكناً ، بصورة استذكارية ، وبصورة ترجيعية . انه لن يكون ممكناً ، ولم يكن قط ممكناً ، لو لم يبرز هذا الرجل . (الفكر والمتحرك ، ص : ١٢٧) . ويقول في مكان آخر :

ان اللوحة المنجزة ، انما تفسرها هيئة النموذج ، وطبيعة الفنان ، والالوان المحلولة على ألوان palette الرسام . ولكن احداً لا يستطيع ان يتنبأ ، بصورة مضبوطة ، بما ستكون عليه اللوحة ، حتى ولو استعان بمعرفة ما يفسرها ، وذلك لان التنبؤ بها ، معناه ان نتجها قبل انتاجها ، وهذا افتراض عايب ، لا يلبث ان ينحل من تلقاء ذاته . (التطور الخلاق ، ص : ٧) .

واذن ، فالواقع هو الذي يسقط فكرته و « امكانه » من خلفه ، حينما يتحقق . ولكن هذه الفكرة لا توجد وجوداً سابقاً على تحققها ، بأية درجة من درجاتها ، والا ، فبأي شكل ، وفي اي فكر ، كانت سابقة على هذا التحقق في وجودها ؟ فكأن فكرة الشيء لم تكن لاحقة لظهور الشيء بالضرورة ، حينما كان الامر ذا علاقة بوجود من الوجودات الجديدة ، بصورة حقيقية ! يقول « برغسون » :

ان وهم التنبؤ العام ما هو الا انعكاس سراب الحاضر في الماضي . (الفكر والمتحرك ، ص : ٢١ - ٢٧) .

ليس العالم « منبجز الصنع » ؛ انه عالم « يصنع » . انه يصنع تحت أنظارنا ، ويصنع فينا ؛ بل وانه يصنع من قبلنا ، الى حد بعيد ، حينها يكون الامر متعلقاً بنا بالذات ^(١) .

* * *

الفوج : ان التأمل في الديمومة هو القيام بعمل من اعمال الايمان والتفاؤل ، فهناك تيار عظيم من الخلق يبعث الحياة في العالم ، الذي ينبجز ذاته بصورة دائمة ، ويتجاوزها بصورة دائمة . وفي هذا التفاؤل تقوم أصالة « برغسون » . ان هناك كثيراً من الفلاسفة تأملوا في الزمان ، بيد ان اغلبهم مثل « هيديجر » Heidegger ،

(١) ان اولئك الذين يأخذون على فلسفة « برغسون » انها كانت فلسفة صيرورة («بندا» مثلاً) ، و « مذهباً حركياً » ، انما يحاولون ان يصلوا عن طريق ذلك ، الى مذهب في الانقضاء العام ، يذيب جميع الاشياء في الميوعة التي نجدها في مد دائم ؛ انه شيء من الاشياء ، اشبه ما يكون بمذهب « كل شيء الى انقضاء » ، الذي قال به « هيرقليطس » . بيد ان الموضوع الذي عالجه « برغسون » ليس الموضوع الشعري الذي يتكلم عن فرار الزمان ، وعن عدم ثبات الحاضر . ليس في هذا ، على وجه دقيق ، غير رؤية الحركة في الديمومة ، وجريانها الدائم ، في حين انها ايضاً ، وبصورة اخص ، جهد خلاق . ليست الديمومة نشتاً وميوعة ، وانما هي خلافاً لذلك ، تركز وتوتر . — هل تمخضت الفلسفة البرغسونية فكرة الجوهر الثابت ؟ بكل تأكيد ، بيد ان الديمومة هي « الجوهرية » . انها ، كما قال « برغسون » ، الحقيقة الأكثر مقاومة من بين الحقائق القائمة . (التطور الخلاق ، ص : ٤٠) . (فلنتذكر مثلاً ، استمرار الديمومة في الألفا العميق ، استمراراً غير قابل للتمزق .)

قالوا بـ « شر الزمان » ، شاعرين انهم ازاء حركة جبرية ،
تنزعنا من ذواتنا بصورة دائمة ، وتنزعنا من الماضي الذي
يرهقنا بكل ثقله الميت ، وتنزعنا من المستقبل الذي هو رمز
القلق ومحله . اما في رأي « برغسون » ، فالزمان ، خلافاً
لذلك ، وعد في التجاوز وفي التحرير . وعلى هذا النحو ، ليس
التأمل في الزمان عبثاً لا غناء فيه . يقول « برغسون » :

اننا سنربح فيه ما شعرنا به من اننا أصبحنا اكثر فرحاً
وأشد قوة . اننا سنشعر اننا اكثر فرحاً ، لان الواقع الذي
يبدع ذاته ، على مشهد منا ، سيهب كلاً منا ، بدون انقطاع ،
بعض ضروب من الارضاء ، التي يفيلمها الفن للممتازين من
ناحية الثروة ، بين حين وحين ، ولأنه سيكشف لنا عن التجدد
المتولد بدون انقطاع ، والاصالة المتحركة للأشياء ، فيما وراء
الثبات والرتابة ، اللذين رأتهما فيه ، قبل كل شيء ، حواسنا التي
خدرها ثبات حاجاتنا . ولكننا سنكون أقوى بصورة أنخص ،
لأن عمل الخلق الكبير ، الذي هو في البدء ، والذي يستمر
تحت ابصارنا ، يجعلنا نشعر اننا نشارك فيه ، خالقين لذواتنا .
ان ملكة العمل لدينا ، حينها تعود فتقبض على ذاتها ، لا يلبث
ان يشتد توترها . اننا ، ونحن حقيرون حتى ذلك الحين ، في
اتجاه الخضوع الذي نتخذه ، وعبيد لما لا أدري من الضرورات
الطبيعية ، لا نلبث ان ننتصب من جديد ، اسياداً متعاونين
مع « سيد » اكبر . (الفكر والمتحرك ، ص : ١٣٣ - ١٣٤) .

ويقول في مكان آخر :

ليست اللذة الا حيلة مصطنعة تصورتها الطبيعة ، لكي تحظى من الكائن الحي بحفظ الحياة ؛ انها لا تشير الى الاتجاه الذي قدفت فيه الحياة . بيد ان الفرع يعلن بصورة دائمة ان الحياة اصابته نجاحاً ، وانها اكتسبت ارضاً جديدة ، وانها احرزت نصراً ، اذ ان كل فرع عظيم له اشارة انتصار تدل عليه ... وحيثما كان هناك فرع ، كان هناك خلق ، وكلما كان الخلق أغنى ، كان الفرع أعمق . ان الام التي تنظر الى طفلها لفرحة ، لأنها تشمر بانها خلقت من الناحية الطبيعية ، ومن الناحية الادبية ... دونكم ضروباً استثنائية من الفرع ، مثل الفرع الذي يعاينه الفنان الذي حقق فكرته ، ومثل الفرع الذي يشمر به العالم الذي اكتشف او ابداع . انكم تريدون ان تقولوا ان هؤلاء الرجال انما يعملون من اجل المجد ، وانما يستمدون افراحهم العميقة الى اقصى حدود العمق ، من الاعجاب الذي يوحون به . يا للخطا الفادح ! ان المرء يعتمد على المدح وعلى الوان الشرف ، حينها لا يكون متأكداً تأكداً مضبوطاً من نجاحه ... ان المرء انما يريد ان يحيط انتاجه باعجاب الناس اطوار ، لكي يضمن انهم يجذبونه ، ولكي يعضد حيوية هذا الانتاج ، التي قد تكون غير كافية ... غير ان من هو متأكد ، بل ومتأكد بصورة مطلقة ، من انه اتي بانتاج حي ويستحق البقاء ، فانه لن يكثر بالمديح ، وسيشعر

بذاته فوق كل مجد، لأنه خالق ولأنه يعرف انه خالق ، ولأن
الفرح الذي يعاينه فرح إلهي . واذن ، فاذا كان انتصار الحياة
هو الخلق في جميع المجالات ، ألا ينبغي لنا ان نفترض ان
الحياة الانسانية لها داع لوجودها ، في عملية الخلق ، التي يمكن
لها ان تتابع ، لدى جميع الناس ، في كل لحظة من اللحظات ،
مع حفظ الفارق بين عملية الخلق لديهم وعملية الخلق لدى الفنان
أو العالم ، وهذه العملية هي ان يخلق المرء ذاته بذاته ، وان
ينمي شخصيته ، بجهد يستمد الكثير من القليل ، ومثيلاً من لا
شيء ، ويضيف غنى الى ما كان في العالم من غنى ، بدون
انقطاع ؟ (الطاقة الروحية ، ص : ٢٤ - ٢٥) .